إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الخامسة – العدد الثامن عشر – صيف ١٣٩٤ش / حزيران ٢٠١٥م
صص ٥٤ ـ ٣١

بنية القصيدة فى شعر جارالله الزمخشرى؛ دراسة تحليلية

حسن دادخواه طهرانى*
خيرية عجرش**
غلامرضا كريمى‌فرد***
زهرة آذرى (الكاتبة المسؤولة)****

الملخص

القصيدة فى الأدب العربى منذ العصر الجاهلى لها بنيتها الخاصة وجعل الشعراء والنقاد هذه البنية المحددة قوام أعمالهم. والقصيدة العربية تتشكل من عدة أقسام وكل قسم مقدمة للقسم التالى؛ فالبيت الأول فى القصيدة يسمى المطلع وفى معظم الأحيان يأتى بعد المطلع التشبيب (ذكر أيام الشباب) أو النسيب والتخلص (انتقال الشاعر من الغزل الى الغرض الرئيس للقصيدة) ثم الغرض الرئيس (المدح، والفخر، والرثاء، و..) والمقطع (الدعاء، وطلب الخلود للشخص الذى نظم الشعر من أجله). وهذه الأقسام غالبا ما التزم بها الشعراء الأقدمون وألزم النقاد بها الشعراء المتأخرين، على أن يعدلوا بينها ولا يخرجوا عليها. يعتبر جارالله الزمخشرى واحدا منهم. إن هذه الدراسة تعالج حياة الزمخشرى وأغراضه الشعرية كما تتطرق إلى بنية القصائد والأساليب التى يستخدمها هذا الشاعر فى افتتاح قصائده للوصول إلى الغرض المنشود وتحقيق ما كان يأمله ويرجوه فى قصيدته، والربط بين ذلک الافتتاح والغرض الذى يهدف إلى تحقيقه وحسن ختامه وأخيرا يدرس المقال القصائد ذوات الموضوع الواحد أو الموضوعات المتعددة مركزا على اتباع الشاعر بنية القصيدة العربية الجاهلية ومحافظته عليها.

الكلمات الدليلية: الزمخشرى، البنية، القصيدة، المقدمة، وحدة الموضوع.

*. أستاذ مشارک فى اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد چمران أهواز، إيران
**. أستاذة مساعدة فى اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد چمران أهواز، إيران
***. أستاذ مشارک فى اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد چمران أهواز، إيران
****. طالبة الدكتوراه فى اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد چمران أهواز، إيران
zohrehazare@yahoo.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هومن ناظميان
تاريخ الوصول: ١٣٩٣/١/١٠ش تاريخ القبول: ١٣٩٤/٦/٥ش

المقدمة

يشــكل بناء القصيدة دعامة أساســية من دعائم العمل الشعرى بفنيته ودقته، ولعله يعكس لنا رؤية الشــاعر وطريقة معالجته للقضية المطروحة أمامه،كما أنه يدل فى بعض جوانبه على الحياة العقلية والاجتماعية للعصر، ومن المعروف أن النقاد القدامى تحدثوا عــن نظام القصيدة العربية القديمة، وقد عرفت القصيدة الجاهلية عندهم ببناء محدد التزم به الشعراء الجاهليون فالأمويّون ثمّ العبّاسيون ونظموا فيه جلّ أشعارهم وقليلا ما نرى التخطى من هذا الأسلوب.

جارالله الزمخشرى المفسر والعالم الجليل، جمع بين العلم بفروعه والأدب، شعره ونثره. فهو إن يُعرف بكتبه العلمية من أمثال "الكشاف" فى التفسير و"المفصل" فى النحو وغيرها من الكتب التى طبعت واشــتهرت بين الدارسين فبات مجهولا جانبه الأدبى ولاسيما ما يخص الشعر. وقد كشف التحقيق عن هذا الجانب المطمور من حياة الزمخشرى وتتجلى لنا أهميته إذا عرفنا أنَّ ديوانه قد ضمّ أكثر من خمسة آلاف بيت صورت حياته ونفسيته وتجاربه وثقافته... . وفى هذه الدراســة يقدم الدارسون تعريفا بالشاعر وحياته تعريفا موجزا ويتحدّثون عن أغراض شــعره مستعينا من ديوانه ويحاولون دراسة تحليلية لبنية قصائده والإجابة عن الأسئلة التالية:١-فماهى مقدمة القصيدة لديه؟ أهو مقدمة طللية أم غزلية أو حكمية٢- هل كانت مقدماته الغزلية ذات طابع صوفى؟ ٣- هل يكون مطلع القصيدة دالا على ما بنيت عليه؟ وهل أجاد الزمخشــرى فى ختام قصائده؟٤-هل يهتم شــاعرنا بحســن التخلص فى قصائده من المقدمة إلى المضمون اهتماما رشيقا؟ ٥-هل ينكر الزمخشرى وحدة الموضوع فى ديوانه أو أكثر وحدة فى قصائده؟

ديوان الزمخشرى هو موضوع هذه الدراسة وفى ٦٥٠ صفحة وتم جمعه سنة ٢٠٠١م بواسطة الدكتور عبدالستار ضيف من مخطوطات الديوان فى المكاتب فى مصر وتركيا و رأى النور سنة ٢٠٠٤م.

الدراسات السابقة

ألفت كتب ومقالات عديدة حول الزمخشرى وكتابه «الكشاف» منها:

كتاب فخر خوارزم (١٣٨٨ش) للباحث عليرضا باقر .تناول خلاله حياة الشاعر وآثاره.

كتاب آخر بعنوان «الزمخشرى» (١٩٦٦م) للباحث أحمد محمد الحوفى حول حياته وآثاره.

ومقال يحمل عنوان «دور الزمخشرى فى البلاغة العربية»، هذا المقال منشور سنة (١٣٩٠ش) فى «مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها»،تطرق فيها الباحث إلى دراسة علم المعانى والبيان والبديع عند الزمخشرى.

ومقال آخر بعنوان «فكرة النظم فى تفسير (الكشاف) للزمخشرى» (٢٠٠٩م)، للباحثة رضوان باغبانى.

وأما فيما يتعلّق بخلفيّة البحث فبإمكاننا أن نقول إنّ الباحث لم يقف على مقالة فارسيّة أو عربيّة بهذا العنوان إلاّ أنّ هناك نجد كتابين حول ديوان شعره وأنّ الباحثين أشار إليه إشارات عابرة:

كتاب جارالله محمود بن عمر الزمخشرى حياته وشعره (١٩٩٤م) للباحث «عبد الستارضيف» ورسالة «على عبدالله عبد عمرو» بعنوان «تحقيق ديوان الزمخشرى» (١٩٧٩م).

الزمخشرى حياته وشعره

محمود بن عمر بن محمد الزمخشرى ولقبه جارالله وفخر خوارزم وكنيته أبوالقاسم (سيوطى، لاتا: ١٠٦) ولد فى قرية زمخشر التابعة لخوارزم فى يوم الأربعاء فى ٢٧ شهر رجب سنة ٤٦٧ الهجرية القمرية. (زركلى، ١٩٨٠: ٥٥) ولد الزمخشرى فى عصر حكم ابوالفتح ملك السلاجقة وابن آلب ارسلان وفى هذه الفترة كانت سوق الأدب رائجة بسبب محاولات وزيره نظام الملك الذى كان يحّب العلم والأدب وكان يدعم العلماء والأدباء ماديا ومعنويا. (عليرضا، ١٣٨٨ش: ٢٧) الزمخشرى تلمذ عند الشيوخ والأساتذة الكبار ومن أشهرهم أبومضر. وكان يحاول الوصول إلى نظام الملك بمساعدة من أستاذه هذا، ليصل إلى المنزلة التى تليقه. مدح الشاعر معزالدين سنجر – سابع ملك

السلاجقة- ومحمد بن نوشتكين وبعض الأمراء فى الحكومة ليصل إلى المقام والمنصب الحوفى، ١٩٦٦م:٣٦). ولكن لم يروا اعتباره كما قال:

خليليَّ هَل تُجدِى عليَّ فضائلى إذا أنا لم أُرفَع على كُلِّ جاهِلِ
مِن الغَبنِ ذو نقصٍ يُصيبُ منازلا أخوالفضلِ مَحقوقٌ بتلكَ الأفاضِلِ
وَمَن لى بِحَقٍّى بعدَما وَفَّرَت على أراذِلها الدنيا حقوقَ الأمائلِ
وَماحَقُّ مثلى أن يَكونَ مُضيَّعاً وَقَدعَظُمَت عندالوزيرِ وسائلى[1]

(الزمخشرى، ٢٠٠٤م: ٩٨)

وفى سنة ٥١٢ الهجرية القمرية أى عندما كان ابن الخامسة والاربعين، أصيب بمرض شديد يسمى الناهكة وتعاهد مع الله لئلا يدخل بلاط الملوك بعد أن يبرأ من المرض وألا يمدحهم أبدا وأن يرفض هدايا البلاط ورواتب أصحابهم وأن يمسك بحبل الإيمان فقط ولايفكر فى شيء سوى العبادة وتعليم القرآن والفقه والحديث. (الزمخشرى، ١٣٢٥ق: ٥)

بعد هذا المرض، الزمخشرى لم يعد يفكر فى المنزلة والمقام وبدأ صفحة أخرى فى حياتها وهى تسلق جبال العلم. ولهذا اتجه نحو بغداد للوصول إلى هدف أكبر وتلمذ عند علمائها فترة ولكن سرعان ما ذهب إلى مكة للخلاص من المطامع الدنيوية ولطلب المغفرة وعندما دخل مكة زار أمير مكة أبى الحسن على بن حمزة بن وهاس الشريف الحسنى الذى كان رجلا عالما وشاعرا وفاضلا. (حموى، ١٩٩٣م: ٨٥) وإنه استقبل الزمخشرى بحفاوة ورحب به واستفاد من علمه كما استفاد الزمخشرى من علمه. (القفطى، ١٩٥٥م: ٢٨٦) بعد مضى سنتين اشتاق الزمخشرى لزيارة البلاد ورجع إليها ولكن كان لايطيق البعد من مكة وسافر مرة أخرى إلى مكة. وفى سنة ٥٢٦ الهجرية القمرية دخل مكة وبقى هناك ثلاث سنين وفى هذه السنوات شجعه ابن وهاس لكتابة تفسير الكشاف. إنه سكن قرب البيت الإلهى ولهذا لقب بجارالله وكما يقول الزمخشرى نفسه، إنه بقى فى مكة خمس سنين:

فَجاوَرتُ ربّى وَهوَ خيرُ مُجاوَر لدى بيتِهِ البيتِ المحرّمِ عاكفا

١. تُجدِى: تنفع – الغَبن: الضعف و النقص – أمائلِ: جمع مائل: الذى زال ومال عن استوائه.

أقمتُ بِإذنِ الله خَمساً كَواملاً وَصادَفتُ سَبعاً بالمعرّفِ واقفا

(الزمخشرى، ٢٠٠٤ق: ٢١٦)

الزمخشرى بعد فترة رجع إلى خوارزم مسقط رأسه وبقى فيها حتى نهاية عمره وتوفى فى ليلة عرفة فى سنة ٥٣٨ الهجرية القمرية فى جرجانية –قرية على شاطئ نهر جيحون– ودفن هناك. (الذهبى، ١٩٩٣م: ١٥٥)

لأبى القاسم الزمخشرى تأليفات عدة فى مجالات مختلفة مثل النحو واللغة والأدب والتفسير والحديث... وديوانه الذى كان أكثر من ٦٠٠ صفحة وتم طبعه لأول مرة سنة ٢٠٠٤ للميلاد بواسطة عبدالستار ضيف.

يشمل ديوان الزمخشرى ٣١٢ قصيدة وخمسة آلاف بيت ويبدأ بمقدمة جميلة فى مدح الخالق تعالى ويقول: «أبدأ بحمد الله على هدايته لأقوم السبل وأثنّى بالصلاة على خاتم الأنبياء و الرّسل، فإنّ الذكرَ مضمارٌ لحمد الله فيه قُدمة المُجلِّى، والصلاة على مصطفاه محمد قدوة المصلّى ....» ولأشعاره مضامين مختلفة مثل المدح والرثاء والفخر والحكمة والشكوى و... ونحن نشير إليها إشارة وجيزة.

المدح

لقد شغل المديح معظم ديوان الزمخشرى فهناك أكثر من ثلاثة آلاف بيت من المديح (عبد عمرو ،١٩٧٩م: ٩٨) ويمكن تقسيم مدحه الذى يشمل نصف ديوانه إلى أربعة أقسام: ١-النبويات: للزمخشرى عدّة قصائد فى مدح الرسول(ص) وأطلق عليه "النبويات" وجعلها فى المنزلة الأولى بين قصائده، فجاءت فى ترتيب ديوانه متصدّرة. ولعل الشاعر إتّجه إلى هذا النوع من المدح فى فترة زهده وتنسكه بعد أن انصرف عن الدنيا، وصرف عن مدح رجال الدولة، واتجه إلى الله بكلّ أعماله وأحاسيسه، فكان هذا المدح النبوى تعبيرا صادقا عما أحس به فى هذا الطور من حياته. (ضيف، ١٩٩٤م: ١٢٥) ومن ذلک قصيدته الأولى من الديوان ومطلعها:

أدار الألى حلّوكِ أينَ أولئكِ أراكِ مَحلّا لِلظباء الأوارک[1]

(الزمخشرى، ٢٠٠٤: ٢٥)

١. الأوارک: جمع آركة و هى التى ترعى الأراک.

٢- مدح الأمراء وكبار الدولة: الذى يرجع إلى الطور الأول من حياة شاعرنا. وهذا النوع من مدائحه يدخل كثير منه فى "مدح التكسب" مثل قصائده فى مدح نظام الملک:

فأنتَ وجيهُ الدولةِ الصاحبُ الذى لهُ هِمَّــةٌ طالَت علــى المتطاوِلِ
وَ إنَّ لَکَ الإنعامَ و الراحَةَ التى إليها بِحارُ الأرضِ مِثلُ الجَداوِلِ[1]

(نفس المصدر: ٩٩)

٣- مدح الأساتذة والأصدقاء: كان الزمخشرى عظيم الإكبارلإساتذته، شديد الوفاء لهم، يفخر بتلمذته لهم ويعدّد مناقبهم. وكان استاذه فريد العصر ابو مضر، أحب اساتذته إليــه، لأنه كان أعظمهم أثرا فى حياته (ضيف، ١٩٩٤م: ١٢٩)، وكان يعشــقه من صميم قلبه؛ ومدائحه هذه مليئة بعاطفة صادقة:

هوَ المرتضى وجهاً وَ خُلقاً وَإنّنى لأشتاقُ ذاکَ الوجه بل ذلک الخُلقا
وَ مــا يطَّببنى الأيــکُ إلّا لأنّنى أساعِدُ فى الشَجوِ الحَمام به الوُرقا
وإن عَصَفَت ريحُ الشَّمالِ ذَكرتُهُ وَإســراعَهُ نحوَ المكارمِ وَ السّبقا
وَ إن مــدَّ جيحونٌ تذكّرتُ فيضَهُ بما يعمُرُ الإذهانَ والألسُنَ الذّلقا[2]

(الزمخشرى، ٢٠٠٤: ١٢٨)

٤- مــدح العرب: حبّ الزمخشــرى للعرب ولغتهم جلىّ وقصيدته المســماة بالعربية نموذج من هذا الحبّ وهو أشاد فيها بصفات العرب وأخلاقهم ومطلعها:

أيا عَرصاتِ الحىِّ أيَــن الأوانِسُ رحلنَ وَحلّتــک الظِّباءُ الكوانِسُ[3]

(نفس المصدر: ٣٦)

وإذا كانت قصائد المدح كثيرة عند الشــاعر فلاننسى امتزاجها بالأغراض الأخرى كالفخر والشكوى والحكمة والهجاء.

الرثاء

يعــدّ الرثاء الغرض الثانى من حيــث الكثرة فى ديوان الزمخشــرى؛ فهناک إحدى

١. المتطاوِل: المتكبر، المترفّع.
٢. الأيكُ: الشجر- الذّلق: يقال: لسان ذلق: حديد بليغ.
٣. الكوانِس: الظباء تدخل كناسها أو بيتها.

وعشـــرون قصيدة وتســـع مقطوعات فى الرثا، تعداد أبياتها خمســـة وسبعون وخمسمائة بيت. (عبد عمرو، ١٩٧٩م: ١٠٧) ويمكن تقسيم الرثاء إلى نوعين: الأولى: رثاء الأقرباء والأصدقاء التى نحس فيها بالعاطفة الجياشة نحو رثائه لأمه:

يا حادثاتِ الدَّهر أمّى بعدَما أدركتِ أمِّى بالرّدى مَن شِيتِ
روحِى وأرواح العشيرةِ بعدَها جَلَلٌ عَذَرتُك أيهُنَّ غَشـــيتِ
لوكانَ يرَثى حادثٌ بالنّفسِ أو بالمـــالِ أو بكليهمـــا لَرُثيتِ[1]

(الزمخشرى، ٢٠٠٤م: ٤٠٧)

كان الشاعر صادقا فى رثاء أمه وأبيه وأصدقائه ويحبهم حبا جما ويمكن فهم احساسه العميق بسبب فقدانهم عبر كلماته وعباراته فى أشعاره.

والثانيـــة: رثاء الأمراء: لانرى الصدق ولا أثرا للحزن على المرثى فى هذا النوع من قصائد الزمخشرى:

على تاجِ النِّساءِ الشَّمسُ تَبكِى تُوافِـقُ صِنوَها شَمسَ المعالِى
لئِن تاجُ النِّساءِ مَضَت وَفاتَت لَقد أبقَـت لنا تـــاجَ الرِّجالِ
وَأربابُ الحِجَى إن يسلَموا لَم أُبالِ بِمَـوتِ رَبّـــاتِ الحِجالِ

(نفس المصدر: ٣٣١)

والزمخشرى فى هذه القصيدة الباردة والخالية عن العاطفة يعزى شمس المعالى بسبب مـــوت زوجته وليس فى هذه القصيدة البكاء والهموم بل موت النســـاء فيها يعتبر قضية ساذجة وعادية!

الشوقيات

قصائد يعبر فيها عن حنينه إلى مكّة وشـــوقه إلى شـــريفها ابن وهاس وحنينه إلى وطنه وقومه وأصدقائه. (ضيف، ١٩٩٤م: ١٤٩) من حنينه إلى مكّة:

وَلِى نَفَسٌ شِـــبهُ اللّهيبِ تصَعَّدَت بـــه زفرةٌ كالنّـــارِ ذاكيـــةَ الجمرِ
يذيـــبُ مضامينَ الشـــؤونِ بِحَرِّهِ فتجرِى شآبيبُ الحميمِ على نحرِى

١. أمّى: أمى الأولى بمعنى: أقصدى – شيت: شئت و خففت الهمزة للقافية – جَلَل: (ضد) عظيم أو هين يسير، والمعنى الثانى هو المقصود هنا.

بــكاءً على أيــامِ مكّــةَ إنَّ بِي إليها حنينَ النّابِ فافقدةَ البَكرِ[١]

(الزمخشرى، ٢٠٠٤م: ٥٠)

جــاراللهِ الزمخشــرى فريد فى هذه القصائــد ويعلن حبه دون أى خــوف ويلتذ من مجالسته ويظهر عواطفه وأحاسيسه القلبية فى وصف الأرض والمحبوب بكل صدق.

الفخر

الفخر من أهم الأغراض الشعرية لدى الشعراء ونجد الفخر فى ديوان جل الشعراء، لأنّه فى الحقيقة مدح النفس وفى ديوان شاعرنا الكثير من القصائد فى الفخر منها أطول قصيدتــه فى ١٣٩ بيتــا وجمع فيها ما تفرق فى غيرها من فضائلــه ومفاخره، افتخر فيها بكرم نسبه وسلامة عقيدته وصحة مذهبه وكرمه وتقاه وعفته ونبوغه فى العلوم المختلفة مثل النحو والبلاغة والحديث والتفسير والعروض والكلام و النظم و... مطلعها:

تَــرانِي فِي علــمِ المُنَــزَّلِ عالِمــاً وَما أنا فِي علمِ الأحاديثِ راسِفا[٢]

(نفس المصدر: ٢١٢)

الحكمة: إنّ الزمخشــرى أصبح رجلا حكيما بســبب كثرة أســفاره وتجاربه المختلفة وزهده وحب التفكر وكسب العلم:

هــواكَ أعمى فلا تَجعَلــهُ مُتَّبَعاً لا يعتَسِف بكَ عن بيضاءَ مَسلوكَه

أتــرُكهُ وَامشِ على آثارِ عقلِكَ فِي مَحَجَّــةِ مِثلُهــا ليسَــت بِمتروكَه

فالعقلُ هــادٍ بصيرٌ لا يزيغُ إلى بَصيرةٍ عن سَدادِ الرَّأى مأفوكَه

(نفس المصدر: ٥٩٩)

ويتجلــى ذلك الاهتمام بالحكمة فى بداية قصائد الرثــاء والتعزية فى قالب حكمى يتضمن حديثا عن الموت والحياة والعمل الصالح والآخرة وغير ذلك.

والزهد والوصف والغزل والشــكوى والهجاء و... من أغراضه الشــعرية الأخرى لدى الزمخشرى التى لن تعالج بها هذه الدراسة.

١. الشــؤون: جمع "شأن" العرق الذى تجرى منه الدموع. – الشآبيب: جمع "شؤبوب" الدفعة من المطر. –الحميم: الماء الحار. – الناب: الناقة المسنة. – البَكر: الفتىّ من الإبل.

٢. الراسف: الذى يمشى مشىَ المقيّد.

بنية القصيدة

القصيدة هى القالب الوحيد فى العصر الجاهلى لدى العرب وهذا القالب بالرغم من التغييرات التى طرأت عليه حفظ على بنيتها إلى حد. (دودبوتا، ١٣٨٢ش: ٥٣)

بنيــة القصيــدة فى الأدب العربى منذ الجاهلية لها قالب محدد وكان الشــعراء ينظمون قصائدهم حسب هذا القالب ثم جعل النقاد هذا القالب كأساس عملهم ورأى النقاد بأن القصيدة العربية تتشــكل من عدة أقسام وكل قســم مقدمة للقسم التالى. المرحلة الأولى مقدمــة فى ذكــر المحبوب والوطن والبكاء على الاطلال و... المرحلة الثانية هى النســيب والشاعر يشكو من حبه للمحبوب وفراقه والمرحلة الثالثة تشمل الرحلة والسفر والسرى ووصف الناقة وحر الشــمس عند الظهر ... وأخيرا الشــاعر يدخل الغرض الرئيس من القصيدة أى المدح أو الرثاء أو الأغراض الأخرى. (ابن قتيبة، ١٩٦٦م: ٧٤و٧٥)

للقصيــدة مصطلحاتها الخاصة والبيت الأول يســمى المطلع وبضــع أبيات فى بداية القصيدة تســمى التشــبيب أو النســيب أو الغزل وهى كمقدمة للقصيدة. والتخلص هو حلقــة الاتصال بين الغــزل والغرض الرئيس والأبيات فى نهايــة القصيدة أيضا تختص بالدعاء. بسبب طول القصيدة ووحدة القوافى يضطر الشاعر أحيانا إلى تجديد المطلع أى تصبح قافية المصرع الأول من بيت فى وســط القصيدة نفس القافية فى المصاريع الثانية. ثم يســتطيع الشاعر استخدام القوافى المتكررة مع القســم السابق فى شعره. (ماحوزى، ١٣٧٢ش: ٢٨٩-٢٩١)

وفى هذه المقالة نحاول دراســة أصول القصيدة العربية الجاهلية أى المقدمة، والمطلع، والتخلص، والمقطع، ووحدة الموضوع فى شعر الزمخشرى.

المقدمة

الشــعراء الجاهليون لم يكتفوا بمقدمــة واحدة بل إنهم كانوا يبــدأون قصائدهم مع المقدمة الطللية أو الغزلية أو وصف الرحل والشــجاعة والفروسية و.... (عطوان ١٩٦٦: ٢٥٦) وهــذا الأســلوب كان رائجا فى العصر الجاهلى والإســلامى والاموى بســبب ظروفهم المعيشــية ومعظم الشعراء كانوا يلزمون أنفسهم باتباع هذا الأسلوب وقليلا ما

نرى التخطى من هذا الأسلوب مما نرى عند الأخطل الذى يبدأ القصيدة بوصف الخمر. (الأخطل، لاتا: ٧٦)

بعد نشأة حكومة العباسيين وظهور الخلافات الثقافية والاجتماعية والسياسية العميقة والتنوع فى أساليب الحياة، انقسم الشعراء إلى قسمين؛ قسم منهم كانوا يتبعون القديم ويدافعون عن التراث العربى القديم وقسم آخر كانوا يريدون الإطلاق من التقاليد وثاروا عليها ودعوا الشعراء الآخرين للثورة عليهم والشاعر أبونواس زعيم هؤلاء الشعراء وهو يبدأ قصيدته بوصف الخمر ويدعو الشعراء مجانبة البكاء على الأطلال فى مقدمة القصيدة. (عطوان ١٩٦٦م: ١٠٥)

اترکِ الأطْلالَ لا تَعْبأ بها، إنّها مِنْ کلّ بؤسٍ دانِیَهْ

(أبو نواس، لاتا: ١١٩)

هل يبدأ الزمخشرى قصيدته بالبكاء على الأطلال والنسيب والغزل أو يخطو خطوات أبى نؤاس فى الإبداع ويثور على القديم؟

كاتبو المقالة بعد دراسة وافية لشعر الشاعر استنتجوا بأن يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، قصائد قدم لها بمقدمات الطللية (البكاء على الأطلال والدمن و...) وقصائد بدأها بمقدمات أخرى مثل المقدمة الغزلية والمقدمة الحكمية و... وقصائد ومقطوعات نظمها دون المقدمة.

فى المقدمة الطللية بدأ الشاعر قصيدته بذكر الأطلال وتعيين مكانه فذكر ما بقى من آثار المنازل ورسومه مع ذكر ما فعلته الرياح والأمطار فيها وذرف الدموع عليها لذكرى الأحباب وحيدا أو مع صاحبة و... هل التزم الزمخشرى به؟

لقد بدأ الزمخشرى الكثير من مدائحه للرسول الأكرم(ص) وصديقه ابن وهاس بالمقدمة الطللية وهو فى إنشاده حذا حذو الشعراء المشهورين مثل امرئ القيس والأعشى مثل ما جاء فى صفحات ٢٥ و٢٩ و٣٥ و٤٢ و٤٩ و٦٦ و٧٠ و٧٨ و٨١ و٩٣ و١٠٠ و٢٣٤ و٢٤٦ و٣٠٥ و٣٣٤ و٣٥٠ و... ونكتفى هنا بالإشارة إلى مقدمة قصيدته فى مدح صدرالدين محمد حفيد نظام الملک:

تبدأ القصيدة مع ذكر صاحبة الشاعر وديارها ورسومها وذكر حبّه وذرف دموعه

لأجله و ذكر أيام عهده بسلمى ووصفها و...:

سلا دارةَ الخَلصاء كيفَ هِضابُها وَما صَنَعَت أجزاعُها وَ شِعابُها
وَهل بديارِ العامريةِ عامِرٌ سوى رُفقةٍ تبكى وَ تَرغو ركابُها
وقفنا بها ركبَ الغَرام فلم تُجِب فَلَجَّت دموعٌ ما يفيقُ انسكابُها
وَما بَقِيت أطلالُها وَرُسومُها صوامِتَ إلّا يومَ صاحَ غرابُها
ملاعِبُ من أترابِ سلمى أسوفُها فَينفَحُ كالمسكِ السحيقِ تُرابُها
وَعَهدى بِسلمى وَهى ساكنة الحِمى تَحَصَّنُ بالقُّب العِتاقِ قِبابُها[1]

(ديوان الزمخشرى، ٢٠٠٤م: ٧٠)

والزمخشرى فى مقدماته هذه كان مقلدا فلذا ليست عبراته متساقطة وعاطفته صادقة لذكرى أحبّائه سلمى وسليمى وخلصاء اللاتى من العشيقات الحقيقية لامرئ القيس وزهير والأعشى؛ هنّ عند شاعرنا لسن إلا تمثيلا؛ والأطلال التى يبكى عليها امرؤالقيس ويتذكر ذكرياتها فى كل زاوية منها فى ديوان شاعرنا خيال يذهب بنا إلى الماضى البعيد ويصور صوت المراكب ودلال النساء بشكل بارع حيث نظنّ بأننا هناك.

الغزل من أجمل الأغراض الشعرية فى وصف المحبوب، بداية لمعظم قصائد ديوان الزمخشرى وبما أن ذيوع صيت الزمخشرى رهين بزهده وكتابه الكشاف، نظن بأن أشعاره تدور حول الزهد والتصوف ولكن بعد دراسة ديوان هذا الشاعر العالم فهمنا بأن الصحيح هو العكس والشاعر فى معظم قصائده يبدأ القصيدة مع الأبيات الغزلية مثلما كان عند معظم الشعراء.

ويمكن تقسيم مقدمات الزمخشرى الغزلية إلى ثلاثة أقسام:

الغزل الصوفى: البعد من الهوى ورجاء وصال الحق ومصاحبة المحبوب من ميزات الزمخشرى الذاتية وأشعاره فى هذا الغرض، تعبير صادق عن شعوره مثل ما فى مقدمته الغزلية فى مدح شمس الدين الوزير وفيها يشبه الشاعر قلبه بقلب الأسد الذى لايهتز

---

١. الدارة: أرض واسعة بين الجبال. – الخلصاء: ماء لعبادة بنجد أو بالحجازأو بلد بالدهناء. – أجزاع: جمع جزع: من الوادى حيث تقطعه. – لجّت: تمادت فى العناد و لازمت الانسكاب. – صاح غرابها: حلّ بينها على زعمهم بأن نعيب الغراب إنذار بالبين – أسوفها: أشتمها.

بالظبـــاء فى الأجمة وتقوى الله حفظـــه من الهوى لأنه فضّل الحياة الصعبة فى ظل العبادة وطاعة الله على اللهو والراحة الدنيوية:

أتَبَـزُّ عَن عِطفِـى رِداءَ الدِّين أجيـادُ غِـزلانٍ وأعـينُ عِينِ
أيروعُنِى ظَبى الكناسِ وَإنَّ لِى قلبـاً يضاهِى قَلبَ ليثِ عَرينِ
أنـا لاتُبَـدَّلُ بِالهُوَينا شِـدَّتِى وَخُشـونَتِى ليسَـتْ تُباعُ بِلينِ
عفتُ الهَوى وَعَفَفتُ عنه واقِياً عِرضِى بِدِرعٍ مِن تُقاىَ رَصينِ[1]

(نفس المصدر: ٣٧٢)

لقد تنســك، وسلك سبيا الرشــاد، وارتدى لباس التقوى، وعار على مثله أن يلم بالغىِّ، وأولى بالجميلات أن يصرفن عنه سهام أعينهن؛لأنها تفتك بتقواه، وماأشد ذلك على نفسه إن وقع، إنها الحسرة التى تنهك النفس غاية النهك. (ضيف، ١٩٩٤م: ١٨٥):

فَلَهفِى على تَقوى قَصَرتُ ستورَها علَىَّ فَأهـوَتْ مُقلَتاهـا لِهَتكِها
وَعارٌ على نفسِى اطِّراحُ رَشادِها وَإلمامُهـا بالغَىِّ من بعدِ نُسـكِها
وما ينهكُ النّفس العزيزةَ ناهكٌ كَموقفِ عارٍ تلـك غايةُ نَهكِها

(الزمخشرى، ٢٠٠٤م: ٧٨)

الغزل العذرى: نجح الزمخشــرى فى نظم هذا النوع من الشــعر نجاحا تاما حيث إن لم نعرف حياته نظن بأنه متيم جن به الحب. وفى القصيدة التالية يذكر سعدى ومصاحبتها فى الخيــام ويعتقد بأن الحياة هى مصاحبة المحبــوب والموت هو فراق المحبوب ويدعو له من صميم قلبه مع أنه يدرى بأن المحبوب لايجيب عنه ويرجو من الله أن يجعل وطنها مخصبا:

أيا حَبّذا سُـعدى وَحَبَّ مُقامُها وَ لا حَبّـذا أن تَسـتَقِلَّ خِيامُها
حياتِى وَمَوتِى قُربُ سُعدى وَبُعدُها وَعِزِّى وَذُلّى وصلُها وانصِرامُها
سلامٌ عليها أينَ أمسَتْ وَأصبَحَتْ وَإن كانَ لايُقـرا علىَّ سـلامُها
رعى اللهُ سرحاً قدرعى فيه سرحُها وَروَّضَ أرضاً سامَ فيها سوامُها[2]

(نفس المصدر: ٨١)

١. تبزّ الشـيئ: تأخذه قهرا. العين: بقر الوحش ومن النسـاء من عظم سواد أعينهن فى سعة. –كناس الظبى: مسستره فى الشَّجَر.
٢. السرح: شجر عظامو كلُّ شجر لا شوك فيه. السوام: الإبل الراعية.

وفى قصيدة أخرى يقوم بوصف المحبوب ويشبهه بولد الظبى ناعمتى رجل ويد كغصون البان المياسة ووجنتيه المضيئَة التى تحترق قلبه وتنهمر دموعه:

رَشــأٌ كَخوطِ البانــةِ الميّاسِ ما يرتَضِى غيرَ الحَشا بِكَناسِ
فِي وَجنَتيهِ ضَــوءُ مِقباسٍ وَفِي صَــدرِ المُتَيمِ حُرقــةُ المِقباسِ
يبقِى الذى يرمِــى إليهِ بِنظرةٍ مثلَ الذِى يغدو صريعَ الكاس[1]

(نفس المصدر: ٤٤١)

وما كان لنا أن ننخدع بهذه الآهات ولاتلك الزفرات ولاهاته العبرات؛ فما هى إلا نزعة التقليد للشعراء الجاهليين.

الغزل الحســى: الغزل الحسى أو الغزل الحضرى شعر فى وصف الجمال الجسمى أو تجسيم آمال الشاعر المشروعة أو غير المشروعة.

والزمخشــرى يقوم بوصف جمال عشيقاته ببراعة خاصة وأنّه فى إتجاهه هذا ووصفه إياها مقلد وفى اختيار اســم هؤلاء العشيقات حذا حذو القدامى من أمثال عمربن ابى ربيعة و بشاربن برد.

فى المقدمة التالية قام شــاعرنا بتصوير جمال عشيقته الخلاب وطيب العناق وتلاقى الشفاه و ارتشاف الرضاب:

ألاقُل لِسُعدى ما لنا فيكِ من وَطَر وَما تَطَّبينا النُّجلُ مِن أعين البَقَر
فإنَّ العيــونَ الضَّيقاتِ وَ أهلَها بِهم علِقَــتْ منّا الضّمائِرُ وَالفِكَر
تقاصــرَ ســاقاه وَلكــنَّ متنه طويلٌ فما فِى القدِّ طولٌ وَلا قِصَر
وَقُلــتُ لَهُ جِئــنِي بِــوَردٍ وَإنّما أرَدتُ بِهِ وَرْدَ الخدودِ وَما شَعَر
أيا حبّــذا تقبيلُ فيهِ وَرَشــفُهُ وَبــردُ ثناياهُ إذا بَرَدَ السَّــحَر[2]

(نفس المصدر: ١١٨)

وفى الأبيات التالية يشبه عشيقته رشأ (ولد الظبى) جميلا ويتذكر تقبيل شفتى المحبوب

١. رَشأ: ولد الظبية . – الخوط: االغصن الناعم. – الكناس: بيت الظبى. – المقباس: شعلة النار تؤخذ من معظم النار.
٢. تَطَّبينا: تشوقنا و تستهوينا. – الوطر: الحاجة. – النجل: الولد.

العاطر مع وجهه الذى يشبه القمر:

مَن مُنصِفِی مِن شادِنٍ تَیاهِ شَــغَفِی به لِجمالِــه مُتناهِی
یا حَبّــذا رَیّــا مُقَبَّلَة التِی أشــتَمُّها عند التقاء شِــفاهِ
رَشأٌ أخالُ البدرَ فارَقَ بُرجَهُ فَهَوی إلَیَّ متی أراه تُجاهِی[1]

(نفس المصدر: ٣٨٠)

والزمخشری یخطو خطواته فی وصف المحبوب حیث لایمکن أن نصدق التقلید فیه:

یا حَبَّذا لیلةً خَلَوتُ بِها تَلثمُــنِی تــارةً وَألثمُها
مازلتُ سَکرانَ لاإفاقةَ لِی مُنذُ سَقانِی عُقارَهُ فَمُها[2]

(نفس المصدر: ٥٢٥)

عندمــا نتأمل فی غزل الزمخشــری یخطر علی بالنا هذا الســؤال: هل هناک مرحلة مجهولة فی حیاة الزمخشری عندما کان شابا وکان هناک حبا حقیقیا بات مغفولا لنا؟

ومن مقدمات دیوان الزمخشری الأخری، المقدمة الحکمیة التی یبدأ الشاعر قصیدته معها. وبما أن الزمخشــری کان من المعمرین وسافر إلی أنحاء البلاد وبسبب زهده وحب التفکــر والتعلم، جعله رجلا حکیمــا محنکا. هذا النوع من المقدمــة جاء غالبا فی بدء قصائــد الرثاء والتعزیة، یقــدم فیها تجاربه عن الحیاة والموت؛ نــری منها فی صفحات دیوانه التالیة ١٣٤ و٢٧٣ و٢٨٠ و... مثل مقدمة رثائه فی موت فرید العصر وهو یطلب فیها ترک الدنیا لأنها فانیة والعمل للآخرة لأنها باقیة:

أیا طالبَ الدّنیا وَیا تارِکَ الأُخری سَــتَعلَمُ بعد الموتِ أیهما أحری
أَلَم یقرعوا بالحَقِّ سمعک؟قُل:بَلی وَذُکِّرتَ بالآیاتِ لو تنفَعُ الذِّکری
وَلابُدَّ لِلإنسانِ مِن سَکرةِ الرّدی وَمِن ساعَةٍ لاصَحوَ فیها وَلاسُکرا
فَذو اللّبِّ مَن لم یطعَم النَّوم جَفنُهُ وَلم یغتَمِض خَوفَ التَّلَقِّی بِلابُشری
وَأیقَــنَ أنَّ المَوتَ فی کُلِّ ســاعةٍ طلائعُهُ تســری فقدأخَذَ الحِذرا

(نفس المصدر: ١٣٤)

١. الشادِن: ولد الظبی.
٢. العقار: الخمر.

الشاعر يجعل مقدماته الحكمية فى صدر مراثيه ليدعو أقرباء الموتى إلى الهدوء ويرى الموت أمرا حتميا والحياة أمرا مؤقتا وقصيرا لايجدر تعلق الإنسان بها.

المقدمة الخمرية إن كانت مقدمة لمعظم قصائد أبى نواس بسيطة جدا فى ديوان شاعرنا الزمخشرى كمقدمة قصيدته التى يمدح بها ابن إسحاق:

كَرِّر على كُؤوسِ الرّاحِ يا ساقى حتى ترى المَيلَ فى عِطفى وَفى ساقِى
قُم فارقِنى إنَّ صِلَّ الهَمِّ يلسَعُنِى وَالرُّقيةُ الرّاحُ وَالرّاقِى هوَ السّاقِى
قالوا المُدامَةُ تَرياقٌ لِشاربِها فهاتِ يا أملَحَ السّاقينَ تِرياقِى

(نفس المصدر: ٢٣٩)

جارالله الزمخشرى يبدأ قصيدته بالبراعة فى وصف الخمر ولكن يرفض شرب الخمر. فإذا يفتخر أبو نواس بالسكر ولكن الزمخشرى افتخاره بعدم شربه الخمر ويبدأ قصيدته بهذه ليقول لمنافسيه لايشقون غباره فى مجال الأدب.

-الشاعر فى الكثير من القطع والقصائد لايتبع بنية القصيدة الجاهلية فيترك شعره دون المقدمة ويجعل الغرض الرئيس فى بداية كلامه؛ كما عدم استخدام المقدمة واللجوء إلى الغرض الرئيس مشهود فى قصيدته فى مديحه لعبدالله:

مَحَلُّكَ -عبدالله -ليسَ يُنالُ أبى ذاكَ عِزٌّ شامِخٌ وَجَلالُ

(نفس المصدر: ١١٧)

أو فى مدح فخر الفريقين قاضى خوارزم:

أفخرَ الفَريقَينِ الَّذى أمرُهُ الأمرُ هَنيئا لَكَ النَّيروزُ وَالعيدُ الفِطرُ

(نفس المصدر: ١٥٦)

وقصيدته فى رثاء عبيدالله:

أتَخضَرُ أشجارُ الرَّبيعِ وتُورِقُ وَ رُزءُ عُبَيدِ اللهِ نارٌ تُحَرَّقُ

(نفس المصدر: ١٧٦)

وفى رثاء موت محمد بن ارسلان:

محمدُ بنُ أرسلان الذى رُثيت مَعالِمُ العِلمِ وَالإسلامِ حينَ رُثِى

(نفس المصدر: ٢٣٦)

الزمخشرى هو الشـاعر العالم الذى يسلك أحسن طريق فى مقدمة قصائده ويحاول دوما التوسـط بـين القديم والجديد ويقف بين تيارين أو دافعـين يتنازعانه، الأول حبه فى أن يكون شـعره على طريقة سـابقته، فجاء بالمقدمة الطللية وغيرها، دون أن يكون له ارتباط بالديار وسـاكنيها والثانى حبه للتحرر والانطلاق على سجيته ويبدأ قصيدته بالغرض المباشرة.

مطلع القصيدة

البيت الأول من القصيدة يسمى المطلع ويشترط فى المطلع أن يكون مصرعا (همايى، ١٣٨٩ش: ٧٣) ومن شـروط حسـن المطلع أن يكون التناسـب بـين المصرعين حيث لايكـون المصرع الأول مختلفا عـن المصرع الثانى. (ابن حجـة الحموى، ١٣٠٤ق: ٣) وكان الشـعراء المجيدون يعنون بجودة مطالعهم، ومازال الشـعراء على تلاحق العصور يتأنقـون فى اختيـار المطالع، لأنها أول ما يقرع الأسماع فينبـئ عن منزلة القائل وقيمة الشعر. (الحوفى، ١٩٧٢م:٢٩٦)

وبعـد أن عرفنا المقصـود بمطلع القصيدة أو ما سماه النقاد بحسـن الإبتداء أو براعة الاستهلال علينا أن نعرف مطالع شاعرنا الزمخشرى.

لقد كان الزمخشـرى حريصا على مطالع قصائده، وهو لايألو عن جهد فى تحسـينها دوما لكى طيبة الوقع فى السمع، بعيدة عن التجافى والتنافر فى قسميها، مشعرة بالغرض من القصيدة. وليس هناك مجال لنتناول إلى كلها فنكتفى بذكر بعض نماذج منها:

مطلع احدى قصائده فى الحنين إلى مكة ووصف مدى شوق الشاعر إلى الكعبة من أحسن النماذج:

فؤادٌ مِن الشوقِ المُبَرَّحِ رَيّانُ إلى حَـرَمِ اللهِ المُعَظَّمِ ظَمآنُ

(الزمخشرى، ٢٠٠٤م: ٤٦)

وفى بداية قصيدته يصف انتصار خوارزمشاه ويشيد بالإسلام والمسلمين يقول:

الآن لِلإسـلام مُدَّ رِواقُ والآن عادَ لِشمسه إشراقُ

(نفس المصدر: ٣٩٠)

أو فى رثاء سراج الدولة ينظم:

ذوالتّاجِ يَجمعُ عُـدَّةً وَعَديدا والموت يَبطِشُ بالألوف وَحيدا

(نفس المصدر: ٤٠٠)

التخلص

تخلص القصيدة بمعنى الانتقال من التشـبيب أو الغزل إلى المدح أو الغرض الآخر وحسن التخلص الذى نسميه المخلص أو حسن الخروج هو أن ينتقل الشاعر ببراعة من الغزل والتشبيب إلى المدح أوالغرض الأخر. (همايى، ١٣٨٩ش: ٧٦) وحسن التخلص أن يسـتطرد الشـاعر من معنى إلى معنى آخر يتعلق بمدوحه بتخلص سـهل يختلسـه اختلاسـا رشيقا دقيق المعنى بحيث لايشعر السـامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع فى الثانى لشـدة الممازجة والالتئام والانسـجام بينهما حتى كأنهما أفرغا فى قالب واحد ولايشـترط أن يتعين المتخلص منه بل يجرى ذلک فى أى معنى كان، فان الشاعر قد يتخلص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصف أو معنى من المعانى يؤدى إلى مدح أو هجو أو وصف فى حرب أوغير ذلک. (الحموى، ١٣٠٤ق: ١٨٥)

العلامة الزمخشـرى ينتقل من غرض إلى غـرض آخر ببراعة ويجعل الاتصال بينها قويا حيث لايدرک القارئ هذا الانتقال ومن نماذج الكثيرة نكتفى بذكر بعضها.

حسـن تخلص الشـاعر من انتقال المعنـى من الحزن إلى المـدح فى قصيدة ٣٧ من الديوان:

وَ لَهفِى على عصرٍ تَقَضّى مُناسِبٍ سجايا فريدِ العصرِ أووَجهَه الطَّلقا

(نفس المصدر: ١٢٩)

والزمخشرى فى قصيدة ٤٠ من ديوانه بعد الوعظ والحكمة ينتقل إلى الغرض الرئيس للقصيدة أى الرثاء:

وَكَم رَبِّ قصـرٍ باتَ يُؤنِسُ أهلَهُ وَفى غده قدأوحَشَ الأهلَ وَالقَصرا

وَمازالَ موتُ المـرءِ يُخرِبُ دارَهُ وَمَوتُ فريدِ العصرِ قدخَرَّبَ العَصرا

(نفس المصدر: ١٣٤)

أو حسن التخلص لدى الشاعر فى انتقال المعنى من النسيب الى المدح: (عبد عمرو، ١٩٧٩م: ١٥٤)

الغُصنُ مِن حُسّادِ تَمييلِه وَالوردُ مِن أعداءِ تَوريدِه
ليسَ له فى الحُسنِ مثلٌ وَل مثلَ عُبيـدِ اللهِ فِى جَودِه

(نفس المصدر: ٤٨٧)

فحينما الشـاعر يذكر محاسـن حبيبته جاء بالبيت الثانى، شـطره الأول فى النسيب وشطره الثانى فى المديح، وانتقل إلى غرضه بكل سهولة ويسر.

جارالله الزمخشـرى يسـتخدم طريقين فى انتقال المعنى: الأول انتقال المعنى فى بيت واحـد من مصرع إلى مصرع آخر والثانى مـن البيتين أى من بيت إلى بيت آخر وذكر آنفا هذين النوعين من الانتقال.

المقطع

البيت الأخير من القصيدة يسـمى المقطع ويقول أبوهلال العسكرى فى هذا المجال: يجدر أن يكون البيت الأخير من القصيدة أحسـن بيت فيها. (العسكرى، ١٩٥٢: ٤٦٣) وهو آخر مايسـمع أو يقرأ منها، فهو أحرى بأن يستقر بالنفس ويعلق بالسمع، ومن هنا كانت عناية الشعراء به وافتنانهم فيه. (الحوفى، ١٩٧٢م: ٢٩٩)

والزمخشـرى كما يهتم بمطلع القصيدة وتحسينه يهتم بمقطع القصيدة وتحسينه اهتماما تاما مثل مقطع قصيدته فى مدح الرسول(ص):

وَمَن فِى كتابِ اللهِ أكملَ مدحُهَ فَكُلُّ مَديحٍ ما خلا ذاكَ ناقِصُ

(الزمخشرى، ٢٠٠٤م: ٣٤)

ختم الشاعر قصيدته بهذا المعنى الرائع وهو أشار إلى قول الله تعالى: ﴿وإنّک لعلى خلق عظيم﴾ (القلم: ٤)

أو يقول فى مقطع قصيدة أخرى فى مدح ابن وهاس:

وَمَن لَفَّ مَجدَى نَفسِهِ و نصابه وَذاکَ ابنُ وَهّاسٍ فقد بَلَغَ المدَى

(نفس المصدر: ٤٥)

وفى نهاية قصيدة فى وصف حنينه إلى مكة يقول:

وَقلتُ لِقلبى قد ملَكتُكَ مَرَّةً فما أنــتَ إلّا طائِرٌ طارَ عَن

(نفس المصدر: ٥١)

ومن ذلک ما ختم به قصيدته فى رثاء شيخه أبى مضر:

فذاک فريدُ العصرِ حَقّاً فلن ترَى عيونُهُــم مِن بَعــدِهِ مثلَهُ حُرّا

(نفس المصدر: ١٣٧)

من ميزات مقاطع قصائد الزمخشــرى الفريدة يمكن الإشــارة إلى أسلوبه الخاص فى المديح وهو الإشادة بالقصيدة المنشودة وتقديمها إلى الممدوح؛كأن يقول فى مقطع قصيدة ٢٦ من الديوان:

وَخُذكِلمةً حُذّاءَ شاعرةً إذا رآها رِجالُ النَّقدِلم يَجِدوا نَقدا

(نفس المصدر: ١٠٣)

وكما ينظم فى ختام مدحه لعبيدالله:

فَدونَکَ طَوقاً فاخراً قد نَظَمتُهُ بِجَزلٍ مِــن المعنى وَلَفظٍ مُنَقَّحِ

(نفس المصدر: ١١٦)

هو فى ختام إحدى قصائده يعتقد بأن شعره أحسن من معلقة امرئ القيس:

مُوَلَّدَةٌ بَذّ القديماتِ شَــأوُها بهاأنَفٌ مِن أن تُقاسَ إلى"قِفا"

(نفس المصدر: ٢٢٠)

وهو فى مقطع مدحه لشرف الملک يشير بأن شعره فريد من نوعه:

وَشعرُ مثلِى غالٍ لجودتهِ وَ جَيد الشِّعرِ ما لَه ثَمَنُ

(نفس المصدر: ٥١٧)

فمن كل ماسبق نرى أنّ الزمخشرى قد أجاد فى اختيار مقاطع قصائده، وهذه الأمثلة نموذج منه.

وحدة الموضوع

أكمل تعريف لوحدة الموضوع هو ما قال ابن رشــيق: فإن القصيدة مثلها مثل خلق

الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر، أو باينه فى صحة التركيب، غادر بالجسم عاهة، تتخون محاسنه، وتعفى معالم جماله، ووجدت حذاق الشعراء، وأرباب الصناعة من المحدثين، محترسين من مثل هذه الحال، احتراساً يجنبهم شوائب النقصان، ويقف بهم على محجة الإحسان، حتى يقع الاتصال، ويؤمن الانفصال، وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها، وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة، لا ينفصل جزء منها عن جزء. (بدوى، ١٩٥٢: ٣٢٦) والقصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلک عنده موضع. (الجاحظ، لاتا: ٢٠٦)

وبالنسبة لشعر الزمخشرى الذى وليد عصر ازدهار الأدب العربى نرى ميزتين مختلفتين:

– قصائد الزمخشرى الطويلة معظمها فى المدح والفخر لها عدة الموضوعات المتعددة؛ وهو فى نظم هذه القصائد يحذو حذو القدامى ويبدأ شعره بذكر الأطلال والدمن وبكاء على رسوم منازل الأحبّة وتذكر صبواته مع حبيبته النازحة ثم يصف وصف السفر وفراق المعشوق وينتقل إلى الغرض الرئيس ببراعة تامة ويختم القصيدة بحسن ختام جميل يعتبر من ميزاته الشعرية. فيمكن لنا أن نرى نماذج من هذا الشعر فى الصفحات التالية من الديوان: ٢٥ و٣٩ و٧٠ و٧٨ و١١١ و١٢٨ و١٤٠ و٢٤٦. والقصيدة المذكورة فى صفحة ٢٤٦ من أجمل أشعار الزمخشرى التى نظمه وفق الأساليب القديمة دون وحدة الموضوع؛ يبدأ الشاعر القصيدة بذكر أحبائه النازلين النعفين:

أهلاً بنازلةِ النَعفَينِ فالوادى وَمَرحَباً بالأنيسِ الحاضِرِ البادِى
هُم تارةً أهلُ حيطانٍ مُشَيَّدةٍ وتارةً أهلُ أطنابٍ وَأوتادِ

(نفس المصدر: ٢٤٦)

وينظم أيامه السعيدة مع أحبابه:

يا حبّذا دارُ أحبابى وساكنُها وَساحةُ الدّارِ والسُّمارُ والنّادِى
وحبّذا زمنٌ ساعاته فُرصٌ وَ كُلُّ أيّامه أيّامُ أعيادِ

(نفس المصدر: ٢٤٦)

ويمضى الأبيات باكية على أثرهم:

ففى إقامتِكم روحٌ لِأفئِدةٍ وَفِى رحيلِكم صدعُ لِأكبادِ

(نفس المصدر: ٢٤٦)

ثم يبين هيامه لحبيبته سعدى شاكيا لممانعتها إيّاه:

ماضرَّسُعدى وَروحُ الصَّبِّ فى يدها لَو أسعَدَتهُ بِوصل بعد إسعادِ

ما ضرّها لو سَقَته مِن مراشفها حتّى تبل غليلَ الهائمِ الصّادِى

(نفس المصدر: ٢٤٦)

ثم تمضى القصيدة بعد ذلك فى المدح وهو غرضها الأصلى بعد هذه المقدمة، وقد أجاد الشاعر الربط وأحسن الانتقال من النسيب إلى المديح:

هيهاتِ إنَّ أسيرَ الحبِّ ليسَ له فادٍ وما القتيل الحبِّ من وادِى

بل الوزيرُ المُفدَّى رَقَّ لِى فَفدَى وذاك صُنعٌ غريبٌ غيرُ مُعتادِ

(نفس المصدر: ٢٤٦)

فالقصيدة عند شاعرنا وإن اختلفت أجزاؤها وموضوعاتها تكون وحدة مترابطة منسجمة متصلة كما صوّره ابن الرشيق.

– القصائد التى نظمت فى موضوع واحد يشمل بعض القصائد والقطع القصيرة ومعظمها المراثى والشوقيات (القصائد التى نظمت فى الحنين إلى مكة) وقصائده التى لا تبدأ بمقدمات. ونحن بعد الدراسة وجدنا أنّ هذا النوع أكثر عدة من النوع الاول؛ كما نرى هذا الجانب فى الصفحات التالية: ٥٢ و٥٩ و١٠٨ و١١٧ و١٢٥ و١٣٣ و١٥٠ و١٥٧ و١٦٠ و١٦٨ و١٨١ و١٨٢ و١٩٠ و٢٢٩ و٢٥٩ و٣٢٣ و٣٩٠ و٤١٢ و٤٨٢ و٥٥٣ و...؛ فمنه قصيدته فى مدح خوارزمشاه فى ٤١ بيتا ومطلعها:

الآنَ لِلإسلام مُدَّ رِواقُ وَالآن عادَ لِشمسه إشراقُ

(الزمخشرى، ٢٠٠٤م: ٣٩٠)

الشاعر من بداية القصيدة إلى نهايتها يتكلم عن انتصار محمد خوارزمشاه ابن انوشتكين ومدح الإسلام والمسلمين ولوم الكفار وهجوهم.

ولكن علينا أن لا نطلب من قصائد الزمخشرى وحدةً مثل الوحدة التى نلاحظها فى

الشعر العربى الحديث كما هو عند البياتى أو السياب.

النتيجة

بعد الانتهاء من هذه الدراسة لبنية القصيدة فى شعر جارالله الزمخشرى، توصل البحث إلى جملة من النتائج الأساسية نوجزها فيما يأتى:

– الزمخشرى حافظ على نظام القصيدة العربية الجاهلية فى معظم قصائده؛ وهو يبدأ القصيدة بمقدمات طللية وغزلية وحكمية وخمرية.

– لقد بدأ الزمخشرى الكثير من مدائحه للرسول الأكرم(ص) وصديقه ابن وهاس بالمقدمة الطللية وهو فى إنشاده حذا حذو الشعراء الجاهليين.

– نرى مقدمات الشاعر الغزلية فى ثلاثة انواع: الغزل الصوفى والغزل العذرى والغزل الحسى؛ لقد كانت أشعاره فى النوع الأول تعبيرا صادقا عن شعوره وفى نوعَى الثانى والثالث نزعة تقليدية ناجحة للشعراء الجاهليين.

– الشاعر يجعل مقدماته الحكمية فى صدر مراثيه ليدعو أقرباء الموتى إلى الهدوء ويرى الموت أمرا حتميا والحياة أمرا مؤقتا وقصيرا لايجدر تعلق الإنسان بها.

– وأما المقدمة الخمرية لم نجد الا أبياتا بسيطة فى ديوان الزمخشرى مقلدا أبا نواس والآخرين على مذهبه.

– ينظم الزمخشرى شعره دون المقدمة فى الكثير من القطع والقصائد ولايتبع بنية القصيدة الجاهلية وهو يبدأ قصيدته بالغرض مباشرة.

– لقد كان الزمخشرى حريصا على مطالع قصائده، وهو لايألو عن جهد فى تحسينها دوما لكى طيبة الوقع فى السمع، بعيدة عن التجافى و التنافر فى قسميها، مشعرة بالغرض من القصيدة.

– أحسن التخلص العلامة الزمخشرى وأجاد الإنتقال من غرض إلى غرض آخر ببراعة ويجعل الاتصال بينها قويا حيث لايدرک القارئ هذا الانتقال. وهو يستخدم طريقين فى انتقال المعنى: الأول انتقال المعنى فى بيت واحد من مصرع إلى مصرع آخر والثانى من البيتين أى من بيت إلى بيت آخر.

– والزمخشرى كما يهتم بمطلع القصيدة وتحسينه يهتم بمقطع القصيدة وتحسينه اهتماما تاما؛ ومن ميزات مقاطع قصائده الفريدة يمكن الإشـارة إلى أسلوبه الخاص فى المديح وهو الإشادة بالقصيدة المنشودة وتقديمها إلى الممدوح.

– قصائد الزمخشرى الطويلة معظمها فى المدح والفخر لها عدة الموضوعات المتعددة؛ وهـو فى نظم هذه القصائـد يحذو حذو القدامى ويبدأ شـعره بذكر الأطـلال والأحبّة وصبواته ووصف السفر وفراق المعشوق و... .

– الأشعار التى نظمت فى موضوع واحد يشمل القصائد والقطع القصيرة التى معظمها المراثى والشوقيات وقصائده التى لا تبدأ بمقدمات.

– الزمخشـرى هو الشـاعر العالم الذى يسلك أحسن طريق فى إنشاد قصائده وهو يحـاول دوما التوسـط بين القديم والجديـد ويقف بين تيارين أو دافعـين يتنازعان كى لاتضره لومة الناقدين.

المصادر والمراجع

ابن خلكان. (لاتا). وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عباس. لبنان: دارالثقافة.

ابن الأثير. (لاتا). الكامل فى التاريخ. ج١٠. المطبعة الأميرية.

ابن قتيبه. (١٩٦٦م). الشعرُ والشعراء. تحقيق احمد محمد شاكر. ج١. مصر: دارالمعارف.

ابو الفداء. (١٢٨٦ق). المختصر فى أخبار البشر.ج ٣. القسطنطنية: لانا.

الأخطل. (لاتا). ديوان شعر. ط٢. بيروت: دار الشرق.

بدوى، أحمد أحمد. (١٩٥٢م). أسس النقد الأدبى الحديث. ط١. لامک: مكتبة النهضة.

الجاحـظ، ابوعثمان عمرو بن بحر. (١٩٣٢م). البيان و التبيين. تحقيق عبدالسـلام هارون. ط٢. مصر: لانا.

الحموى، ابن حجة. (١٣٠٤ق). خزانة الأدب وغاية الأرب. مصر: المطبعة الخيرية.

الحمـوى، ياقوت. (١٩٩٣م). معجم الأدباء. تحقيق إحسـان عبـاس. ط١.ج١٤. بيروت: دار الغرب الإسلامى.

الحوفى، أحمد محمد. (١٩٦٦م). الزمخشرى. ط١. لامک: دار الفكر العربى.

ـــــــ . (١٩٧٢م). الإسلام فى شعر شوقى. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

دودبوتا، عمرمحمد. (١٣٨٢ق). تأثير شعر عربى برتكامل شعر فارسى. ترجمه سيروس شميسا. تهران: نشرصداى معاصر.

الذهبی. (١٩٩٣م). سیر أعلام النبلاء. تحقیق بشار محمود عوام ومحیی الدین هلال السرحان. ط٩. ج٢٠. بیروت: مؤسسة الرسالة.
الزرکلی، خیر الدین. (١٩٨٠م). الأعلام. ط٥. ج٨. بیروت: دار العلم للملایین.
الزمخشری، محمودبن عمر. (١٣٢٥ق). مقامات الزمخشری. ط٢. مصر: لانا.
ـــــــــ. (٢٠٠٤م). دیوان الزمخشری. تحقیق الدکتور عبد الستار ضیف. ط١. مؤسسة المختار. مصر: القاهرة.
السیوطی، جلال الدین عبدالرحمن. (لا تا). طبقات المفسّرین. بیروت: دار الکتب العلمیة.
ضیف ، عبد الستار. (١٩٩٤م). جارالله محمود بن عمر الزمخشری حیاته و شعره. ط١.القاهره: عالم الکتب.
عبد عمرو، علی عبدالله. (١٩٧٩م). تحقیق دیوان الزمخشری. مدینة نصر: مکتبة النصر للآلات الکاتبة.
العسکری، أبوالهلال. (١٩٥٢م).کتاب الصناعتین. تحقیق علی محمد البجاوی ومحمد ابوالفضل ابراهیم. ط١. لامک: دار إحیاء الکتاب العربی.
عطوان، حسین. (١٩٦٦م). مقدمة القصیدة العربیة فی العصر العباسی الأول. ج١. مصر: دارالمعارف.
کبری زاده، طاش. (لاتا). مفتاح السعادة ومصباح السیادة فی موضوعات العلوم. تحقیق أحمد بن مصطفی. ج٢. القاهرة: دار الکتب الحدیثة.
ماحوزی، مهدی. (١٣٧٢ش). برگزیده نظم و نثر فارسی. ط٥.طهران: أساطیر.
همایی، جلال الدین. (١٣٨٩ش). فنون بلاغت و صناعات ادبی. طهران: أهورا.